المكونات السردية في السِّيرة الذاتية: كتاب «الاعتبار» نموذجاً

عبدالله محمد عيسى الغزالي

أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الكويت

الملخص

اهتم الباحثون حديثاً بدراسة الأجناس الأدبية السردية. وتنطلق هذه الدراسة من افتراض أن السيرة الذاتية جنس أدبي سردي.، وتتخذ من «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ نموذجاً لها. بدأت الدراسة بمقدمة شملت: التعريف بالسيرة الذاتية لغة واصطلاحاً، ثم حياة أسامة بن منقذ، ثم «كتاب الاعتبار».

ثم ركَّزت الدراسة على فحص مكونات السرد في «كتاب الاعتبار»، وهي: السارد، والمسرود، والمسرود له، والزمن السردي، وأساليب السرد، وأدوات السرد، ولغة السرد. ثم جاءت الخاتمة لتؤكد صحة الفرضية بِعَدِّ السيرة الذاتية جنساً أدبياً سردياً، مثل غيرها من الأجناس السردية؛ كالقصص الخرافي والقصص الرمزي على لسان الحيوان والطير، مع محافظة كل جنس أدبي سردي على خصوصية مكوناته السردية.

الفرضية

اهتم الدارسون والباحثون، في الدراسات النقدية الحديثة، بدراسة الأجناس الأدبية السردية، مثل الخرافات العربية القديمة؛ كخرافة شهرزاد، وكرامات الأولياء، وسِيَر الأبطال وغيرها. وتأتي هذه الدراسة انطلاقاً من افتراضٍ أن السيرة الذاتية جنس أدبي سردي، كالأجناس السابقة، مع خصوصية مكوناتها السردية.

ولتأكيد هذه الفرضية ركزت هذه الدراسة على بيان المكونات السردية في السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» نموذجاً.

وَتَطَلَّبَ ذلك تقديم تعريف للسيرة الذاتية لغةً واصطلاحاً، ثم بيان طبيعة حياة أسامة بن منقذ ومراحلها، فهو الركيزة الأساس التي قام عليها «كتاب الاعتبار». ثم تطلب، بعد ذلك، فحص المكونات السردية للكتاب، ودراستها بعناية، لتأكيد الفرضية القائلة بعد السيرة الذاتية جنساً أدبياً، يضم إلى الأجناس الأدبية الأخرى.

المقدمة

1 – السيرة الذاتية لغة واصطلاحاً

السِّيرَةُ في معاجم اللغة هي الطريقة والهيئة والسُّنة[1]. يقول التهانوي:

> **«هي اسم من السَّيْرِ، ثم نقلت إلى الطريقة، ثم غلبت على الشَّرع على طريقة المسلمين في المعاملة مع الكافرين والباغين وغيرهما من المستأمنين والمرتدين وأهل الذمة... وفي الشرع يختص بِسِيَرِ النبي عليه السلام في المغازي...»**[2].

ويبين الدكتور عبدالله إبراهيم أنها تدل على الحديث، ثم أوضح أن هذه الدلالة تشير إلى أمرين:

> **«الأول: تضمّن اللفظ معنى الخبر أو الحكاية، الثاني:**

الإشارة إلى قدم مرويات السيرة، . . . ثم أصبحت . . . تحيل على الترجمة المأثورة لحياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم . . . »[3].

وعند حديثه عن صيغتي: القول والإخبار أوضح الدكتور سعيد يقطين أن هناك تمييزاً بين ثلاثة من الأجناس هي:

«الشعر والحديث والخبر. وأن كل كلام العرب يدخل بهذا الشكل أو ذاك ضمن هذا الجنس أو ذلك . . . »[4].

فالسِّيرة إذن شكل من أشكال الخبر، وهي إخبار. وعند حديثه عن الأنواع الخبرية الأصول وهي: الخبر، والحكاية، والقصة، والسِّيرة، بين يقطين أن الخبر والحكاية يتركزان حول أحداث معينة، في حين تركز القصة والسيرة على شخصية معينة[5]، كما في كتاب «الاعتبار» مثلاً.

ورأى الدكتور عزيز العظمة أن التاريخ ليس علماً بالواقع، بل معرفةٌ بخبر عن الواقع، وقسم الخبر إلى أَصْنافٍ هي: التاريخ، والسير، والقصص، والأنساب، والآثار[6]. وقد أنكر «كولنجوود» أن تكون السيرة جزءاً من التاريخ، ووافقه في ذلك «توينبي»، في حين اشترط «شوتول» أن تفصل السيرة أحداث الفرد عن المجتمع، كما بين الدكتور إحسان عباس في دراسته القيمة[7].

وإذا كان القصص القرآني جاء للاعتبار بتجارب الأمم السابقة، فإن المسلمين بدأوا بكتابة سيرة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بوصفها جزءاً من السُّنة، واعتمدوا في كتاباتهم على سرد الأيام والمغازي، كما هو الحال في السيرة النبوية لابن إسحاق. ثم أخذت السيرة شكلاً آخر عند الجاحظ، الذي اعتمد على تصوير هيئات الناس والحيوان وطبائعهم وغيرها، مقترباً من الخيال في السرد. ثم هيمن على السِّيَر الطابع الأدبي كما في «يتيمة الدهر» للثعالبي، و«دمية القصر وعصرة أهل العصر» للباخرزي.

وبانتشار ثقافة الليالي والسمر غلب على السِّيَر طابع المغامرات، والحوادث الشخصية، والخيال، والفكاهة، مثل سيرة عنترة، وسيف بن ذي

يزن، والأميرة ذات الهمة، وسيبويه[8]. وصنف الدكتور شوقي ضيف التراجم الشخصية/ الذاتية، على حسب العِلْم، والمضمون، فجعلها تراجم فلسفية، مثل ترجمة ابن الهيثم وابن سينا، وتراجم علمية وأدبية، مثل ترجمة ابن الجوزي وأبي شامة، والسخاوي والسيوطي، وتراجم صوفية، مثل ترجمة الغزالي، وابن الفارض، والشعراني، والتراجم السياسية، مثل ترجمة أسامة بن منقذ لنفسه في «كتاب الاعتبار»، وترجمة ابن خلدون المسماة: «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً»[9].

وقد قل الاهتمام بكتابة السِّيرة الذاتية بعد ابن خلدون، المتوفى سنة 808هـ/ 1405م، بشكل واضح، مما دفع الباحثة تهاني عبدالفتاح شاكر إلى أن تقول:

> **«فالكتابات الذاتية التي شاعت في عصر ابن خلدون حتى مطلع العصر الحديث، لا نجد بينها ما يقدم شيئاً جديداً لفن السيرة الذاتية، بل لعلنا لا نجد بينها عملاً يقترب بقيمته الأدبية من سيرة ابن خلدون أو بعض أصول السيرة السابقة لها»**[10].

ويعد «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ من أهم كتب السيرة الذاتية وأبرزها، أو كما قال عنه عبدالعزيز شرف:

> **«في القرن الثاني عشر الميلادي كان «كتاب الاعتبار» للفارس العربي المسلم أسامة بن منقذ (488 - 584هـ) يعد نموذجاً عالياً للمذكرات والتراجم الذاتية. .»**[11].

فالسيرة الذاتية إذن هي فن أدبي يتخذ الكاتب فيه حياته محوراً له، ثم يقوم بسرد أهم الأحداث التي عاشها، في مرحلة متأخرة من عمره، وتخضع لشروط كثيرة، تقتضي اختيار بعض الحوادث، وحذف الآخر، أو تعديله، ويقول عبدالعزيز شرف:

> **«إن السيرة الذاتية - كنص أدبي يكتبه صاحبه عن نفسه -**

ليست مجرد تسجيل حوادث وأخبار، وليست أيضاً مجرد سرد لأعمال الكاتب وآثاره، لكنها عمل فني ينتقي وينظم ويوازن، على النحو الذي يصور ذلك جميعاً، في عمل أدبي يترك أثره المنشور لدى المتلقي، يتساوى في ذلك ما يقدمه الكاتب عن حوادث وأخبار وذكريات طفولة وشباب»[12].

فكيف كانت حياة أسامة بن منقذ؟ وما أهم المحطات والحوادث والشخصيات في حياته؟ لتكون مادة لسيرته الذاتية في «كتاب الاعتبار»؟

2 – حياة أسامة بن منقذ

هو أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ الكناني الكلبي الشَيْزَري، أبو المظفر، مؤيد الدولة، أمير من أمراء قلعة شَيْزَر، القريبة من حماة، ولد في شَيْزَر، على نهر العاصي، في 27 من جمادى الآخرة سنة 488هـ/ 4 من يوليو 1095م. ولم أجد ملخصاً مفيداً عن حياته أَفْضَل مما قاله فيليب حتي:

«عاش أسامة شهماً فارساً، وزها مجاهداً مقاتلاً، ولمع أديباً وشاعراً. تلهى صياداً، وقضى الكثير من سنيه جَوَّاباً. نشأ على ضفاف العاصي بجوار حماة، وصرف معظم شبابه في البلاط النوري بدمشق، وفي قصر الخليفة الفاطمي بالقاهرة، وغالب سني كهولته في الدار الأتابكية بالموصل وفي حصن كيفا على دجلة. زار بيت المقدس في فلسطين، وحج إلى الحرمين، وتنقل بين معظم العواصم الإسلامية من مدنية ودينية. عاشر نور الدين، وتصيَّد مع زنكي، وصاحب الخليفة الحافظ وخَلَفَه الظافر...»[13].

ويُزادُ إلى هذه الصفات الحميدة في شخصية أسامة بن منقذ، أن له علاقات واسعة مع الإفرنج، في حالات السلم والحرب، وقد سجل ذلك بأمانة وصدق في «كتاب الاعتبار»، يقول فيليب حتي في ذلك:

«تَعَرَّفَ شخصياً ببوهند وتنكرد وفُلك من الإفرنج

الصليبيين، وخصه قبيل وفاته بدمشق عن ٩٦ عاماً قمرياً صديقه صلاح الدين الأيوبي بعطفه. آخى الإفرنج - ولا سيما الفرسان منهم - في حين السلم، وقاتلهم في حال الحرب، كما قاتل غيرهم من الإسماعيلية وسائر العرب - فضلاً عن الأُسْد والوحوش. .»[14].

إن حياة أسامة تعد نموذجاً راقياً للفارس العربي المسلم، بكل ما تحمل كلمة فارس من قيم وأخلاق ومُثُل، في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، في زمن الصراع العربي الإسلامي مع الإفرنج الصليبيين. ولقد بدت ذكريات أسامة مع والده، الذي زهد بالحكم، وعكف على القرآن الكريم ينسخه، ويقضي وقت فراغه في صيد الوز والطيور والأرانب وحمير الوحش والسمك وغيرها، بارزةً في «كتاب الاعتبار». غير أن ارتباط أسامة بعمه سلطان وحروبه ومغامراته معه ضد الإفرنج، قبل أن يرزق بولد، جعل من العم حاضراً في حكايات «كتاب الاعتبار» بشكل ملحوظ. أما الصداقة بين أسامة بن منقذ وصلاح الدين الأيوبي، الذي أحبه وأُعْجِبَ بفروسيته وقاتل معه، فقد جعلت من صلاح الدين حاضراً في ذاكرة أسامة بشكل لا وعي فيه، يهيمن على الحدث، ويستنطق النص في الكتاب كله. ولا شك أن والدة أسامة، التي فضلت أن تدفع ابنتها من أعلى الوادي لتموت خشية الوقوع في أيدي الإسماعيلية، الذين هاجموا شَيْزَر مرة - كان لها المكانة البارزة في ذاكرة أسامة وحكاياته أيضاً. كما كانت جدته، التي قدمت له النصائح في اتخاذ الحيطة والحذر للمحافظة على حياته - حاضرة في ذاكرته أيضاً. ولا شك أن الصراع مع الإفرنج، في المقام الأول، ثم مع الإسماعيلية، في المقام الثاني، احتل مكانة بارزة جداً في ذاكرة أسامة، لتجعل من هذا الآخر وصراعه وعيشه معه في آن واحد، يحتل المساحة الكبرى في مرآة الذات/ «كتاب الاعتبار» عند أسامة.

وإذا كانت تلك الشخصيات حاضرة في ذاكرة أسامة، وقد تجاوز التسعين من عمره، فإن المحطات الجغرافية كانت هي الأخرى تشكل زوايا في ذاكرته أيضاً، ولعل أهمها:

1 – مرحلة الولادة والطفولة والشباب في شَيْزَر 1095م.

2 – حياته في دمشق في البلاط النوري/ 1138 – 1144م.

3 – حياته في القاهرة عند الخليفة الفاطمي 1144م – 1154م.

4 – عودته إلى دمشق/ 1154م – 1164م.

5 – سنوات الكهولة في الدار الأتابكية بالموصل، وفي حصن كيفا على ضفاف نهر دجلة حتى وفاته 584هـ/ 1188م.

لقد حمل أسامة بن منقذ ذكريات أكثر من تسعين سنة في ذهنه، بما فيها من حوادث وشخصيات ومشاهدات وانطباعات، عبر مراحل حياته ومحطاتها كلها، لتكون مادة الحكي/ المسرود في «كتاب الاعتبار». فما ملامح هذه الذكريات/ السيرة الذاتية لأسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار»؟

3 – «كتاب الاعتبار» مرآة الذات لأسامة بن منقذ

إذا كانت السيرة الذاتية، في أَيْسَر تعريفاتها، هي كتابة شخص عن حياته بشكل فني، فإن أسامة بن منقذ استطاع، في «كتاب الاعتبار» أن يكتب عن نفسه أو يحقق متعة السرد، بالنظر إلى النفس من الداخل، في تجاربه مع الآخر، أياً كان هذا الآخر، حبيباً أو عدواً. ولقد كان أسامة محباً لنفسه، فخوراً بها، في مختلف مراحل حياته، كما كان محباً لوالديه وعمه وأصدقائه، وبلدة شَيْزَر أيضاً، ولقد بدا ذلك واضحاً في سرد أسامة لذكرياته معهم، في عملية غير واعية، تلقائية، عفوية، كشف فيها أسامة عن حياته الداخلية الباطنية، والخارجية أيضاً تجاه هؤلاء. ولقد مارس في «كتاب الاعتبار» خلوةً مع النفس، في مرحلة متأخرة من عمره، وكان قد جاوز التسعين منها، ليتذكر ويحكي/ يسرد، بعد أن انقطع عن الحياة تقريباً، وانقطع عن الآخر، واقترب من الموت، الذي غيَّب من يتذكرهم. وإذا كانت قيود المجتمع والعالم الخارجي شكلت سجناً لأسامة، وفرضت عليه الصمت عن الحديث عن حياته في شبابه، فإنه استطاع أن يتحلل من تلك القيود، ويعيد التوازن والانسجام مع الذات، في لحظات صدق معها، ومع العالم الخارجي، وينطلق من الداخل إلى الخارج لسرد ذكرياته، في مرحلة

متأخرة جداً من حياته. وإذا كانت السيرة الذاتية الناجحة والمقروءة تلك هي التي يكتبها شخص وتُعَدُّ موضوعاً للنقد، فإن «كتاب الاعتبار» يعد من أنجح السير الذاتية وأفضلها لطبيعة شخصية أسامة، الفارس والشاعر والنبيل والكاتب، وهو ما يعد حقلاً خصباً للدراسات النقدية.

لقد كان أسامة بن منقذ قريباً جداً من قلوبنا؛ لأنه استطاع أن يخلق رابطاً بينه وبيننا، عبر السرد الجميل والممتع لذكرياته، التي امتدت طوال قرن من الزمان تقريباً[15]. فكان صادقاً عندما سرد شيئاً عن حياته الخاصة، سواء أكان مع والده ووالدته وجدّته أم مع أصدقائه، ولا سيما صلاح الدين الأيوبي. مثلما كان صادقاً عندما سرد شيئاً عن خصومه وأعدائه، في حالات السلم والحرب، ولا سيما الإفرنج والإسماعيلية. وعلى عكس المتكلِّم، الذي يزيد شكنا في كلامه كلما أكثر من الكلام، كان أسامة في «كتاب الاعتبار» يكسب ثقة القارئ كلما أسهب في السرد؛ إذ استطاع في «كتاب الاعتبار» أن يسقط المسافة الشاسعة بينه وبين المتلقي سرده، وأن يلغي الفاصل الزمني بقدرته الفائقة على استخدام تقنيات السرد، في التأثير في المسرود له، بإثارة الرغبة لديه في الكشف عن عالم يجهله. إن الثقة الكبيرة التي كونها عبر سرد حكاياته في «كتاب الاعتبار»، مع المسرود له، جعلت منه صديقاً يقبل أخطاءه بصدر رحب، عندما يفضي إلى المسرود له باسراره[16]، ولا سيما طعنه رفيقه خطأً، وقتله خادمه وهو صبي دون العشر[17].

ولعل طبيعة السيرة الذاتية، التي تدفع صاحبها إلى سرد ما يقلقه لتطهير ذاته، هي التي دفعت أسامة بن منقذ إلى سرد أسرار حياته القديمة، بما فيها من أخطاء، وهو في حالة انسجام مع الذات، وإدراك تام أن المسرود له قد أصبح صديقاً، يقبل اعترافاته، ويغفر زلاته وأخطاءه. إن سرده حكاياتٍ مثل قتله خادمه وهو صبي دون العشر، وطعنه رفيقه خطأً، والضبع التي آذته، وعمه الذي خاف من فأرة، وهجوم الإسماعيلية على شَيْزَر، ومكائد الإفرنج على شَيْزَر، ومنزلة الفارس وشجاعته عند الإفرنج، وغيرها، تجعل من سيرته «كتاب الاعتبار» أدب اعتراف، ومرآة صادقة للذات، فهو يجسد الماضي الذي عاشه

بخيره وشره، بما له وما عليه، وقد حقق الموضوعية والصدق، والمتعة في السرد، وكَسْب الآخر. وأظن أن أسامة بن منقذ استطاع أن يلقي عبئاً نفسياً كبيراً عن كاهله باعترافاته تلك، ويحقق التوازن مع الذات، بإخراج ما بداخله إلى الخارج/ المسرود له، الذي أصبح صديقاً، يستمع إليه بأدب، ويقبل سرده ويغفر زلاته، ويُكْبِرُ بطولاته. وهي الغاية الكبرى التي استطاع أن يحققها في «كتاب الاعتبار».

مكونات السرد في «كتاب الاعتبار»

1 – السارد

ينهض السارد في السيرة الذاتية بالبناء السردي لها، ويكون المحرك للعملية السردية، والموجه لأحداثها، والدائرة التي تنزاح عنها كل الدوائر الزمنية والسرية في السيرة. وفي «كتاب الاعتبار» كان أسامة بن منقذ سارداً، أدى وظيفته بشكل ناجح، وكان المحرك للعملية السردية والموجه لأحداثها والدائرة التي انزاحت عنها كل الدوائر الزمنية والسردية. وكان سارداً بعدَّة أشكال:

1 – 1 – السارد المتماهي

نراه حيناً سارداً متماهياً، يسرد ما حصل له شخصياً من حوادث عبر السنين، وهو هنا مجرد ناقل لشيء حدث في الزمن الماضي، لذا يستخدم الأفعال الماضية مثل:

«ومن عجيب ما جرى لي في تلك الوقعة»[18].

«وكنت قد ركبت أنا وأصحابي إلى باب القصر»[19].

«وسيّرت الأمان مع غلام لي»[20].

«فمن ذلك ما شاهدته»[21].

«ومثل ذلك ما جرى لي»[22].

ولعل أكثر الحكايات التي كانت مُؤَثِّرَةً في نفس أسامة، وكان فيها سارداً متماهياً، سرد ما حصل له، قبل أكثر من ثمانين سنة، وهو حكاية قتله خادمه:

«. . . إنني كنت يوماً على باب دار والدي، رحمه الله، وأنا صبي عمري دون عشر سنين. فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبياً من خدام الدار فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه، فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني، فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها فوقعت في بَزِّهِ الأيسر فوقع. . . »[23].

ويمكن القول إنَّهُ كان السارد المتماهي في «كتاب الاعتبار» كله تقريباً، مع استثناءات هنا وهناك، سواء أكان في طفولته، أم في أثناء وجوده في دمشق، أو مصر، أو قتاله الإفرنج والإسماعيلية، أو صيده ومغامراته.

1 – 2 – السارد المفارق مسروده

وحيناً آخر نراه مفارقاً مسروده، يسرد ما حصل لغيره، وهو قليل، قياساً بسرد التماهي، مثل:

«ومن عجائب الطعن أن رجلاً. . . قال له عَمِّي»[24].

«أن اسباسلار مودود رحمه الله نزل بظاهر شَيْزَر. . . فخرج إليه عَمِّي ووالدي، رحمهما الله، وقالا له. . . »[25].

«وكان ممن أُسِرَ. . . فأرسل عَمِّي عجوزاً»[26].

1 – 3 – السارد الضمني

ونرى أسامة بن منقذ، في بعض الحكايات، سارداً ضمنياً، إذ يفتتح السرد، ثم يقدم سارداً يقوم بمهمة السرد، فيما يتحول أسامة بن منقذ شاهداً مستمعاً/ مسروداً له، مثل:

«ومن ذلك ما حدثني به المؤيد الشاعر البغدادي. . قال: . . . »[27].

«وحكى لي هذا عن ابن صاحب الطور. . . قال: . . . »[28].

«وحدثني الأمير فضلٌ ابن أبي الهيجاء. . . قال: . . . »[29].

«ومن لطف الله تعالى ما حدثني به عبدالله. . . قال: . . . »[30].

2 – المسرود/ المحكي

لما كانت السيرة الذاتية تذكراً لأحداث حَدَثَتْ في الزمن الماضي، وبشكل عفوي تلقائي، لا يتحكم به السارد، لحظنا أن المسرود/ المحكي، لم يخضع للتسلسل الزمني الميقاتي، على حسب الأيام والأسابيع والشهور والسنين، فقد كان أسامة بن منقذ متحرراً من كل تلك القيود الزمنية، مستسلماً، وتاركاً لذاكرته الحرية المطلقة في التذكر، والانتقاء، والقفز فوق حواجز السنين، والأحداث، والشخصيات. وينفتح هنا زمن السرد على الماضي، لا تذكراً بل انتقالاً وانتقاءً. فنراه يؤخر حدثاً وقع له شخصياً، وهو دون عَشْر السِّنين من عمره، ليأخذ الرقم مائة وأربعة وخمسين، في حكاياته البالغة مائتين وعشرين حكاية[31]، ويؤخر أخبار والده، الذي أَحَبَّهُ وأُعْجِبَ به إلى الباب الثالث، وإن كان ذَكَرَهُ ببعض الحكايات قبل ذلك بقليل[32]، كما جاءت أخبار والدته وجدته متأخرة أيضاً[33]. ولقد تنوعت الحكايات المسرودة في «كتاب الاعتبار»، وجاءت تلك الأكثر عمقاً في ذاكرته، والأشد تأثيراً في نفسه، والأعظم فخراً له، في البداية. لذلك نرى أن الحروب والأسفار، وقتال الإفرنج جاءت أُوْلى الحكايات المسرودة في «كتاب الاعتبار»، وكانت البداية مع حكاية «معركة قنسرين» بين المسلمين والإفرنج، ولعل سبب تذكره لهذه الحكاية بدايةً هو أنه:

«لم يكن القتل في ذلك في المسلمين كثيراً. . . بل قتل من الإفرنج خلق كثير. . . فجمعت رؤوسهم في حقل مقابل الحصن فكانت قدر ثلاثة آلاف رأس»[34].

وقد سرد أسامة بن منقذ حكاياته تبعاً لمقدار إلحاحها وحضورها في ذاكرته كما يلي:

2 – 1 – (الباب الأول) حروب وأسفار، ص 1 - 166

2 – 1 – 1 – قتال الإفرنج ص 1 - 3

2 – 1 – 2 – أسامة في دمشق، وهي مختصرة جداً
533 - 549هـ/ 1138 - 114/ ص4 - 5.

2 – 1 – 3 – أسامة في مصر 539 - 549هـ/ 1144 - 1154م ص 6 - 33

حيث سرد حكاياته في البلاط الفاطمي، وذكرياته عن الثورة، والمكائد والمهمات التي قام بها. ولعل حكاية «موقعة مع الإفرنج في عسقلان»[35] هي الأبرز في أحداث مصر عنده، وكذلك خبر مقتل أخيه[36]، وحكاية «أسامة جريح»؛ حيث سرد حكاية وقوعه جريحاً في حربه مع ناصر الدين عباس، صاحب الوزارة الفاطمية:

> **«وانقطعتُ عن أصحابي وتحتي حصان أبيض، هو أردى خيلي، فحمل عليّ العرب فلم أجد ما أدفعهم به، ولا ينجيني منهم حصاني، وقد وصلتني رماحهم. قلت: أثب على الحصان وأجذب سيفي أدفعهم». فجمعت نفسي لأثب، فتتعتع الحصان. فوقعت على حجارة وأرض خشنة، فانقطعت قطعة من جلدة رأسي ودخت حتى ما بقيت أدري ما أنا فيه... ونفذ لي ناصر الدين عباس حصاناً وسيفاً، وسرت وأنا لا أقدر على عصابة أشد بها جراحي...»**[37].

وفي حكاية «الإجهاز على أسرة الخليفة» كان أسامة متأثراً جداً بما شاهده حيث يقول:

«وكان ذلك اليوم من أشد الأيام التي مرت بي، لما جرى فيها من البغي...»[38].

2 – 1 – 4 – زيارة أسامة الثانية لدمشق 549 - 559هـ/ 1154 - 1164م ص 43 - 53 :

ولعل الحكاية الأبرز هنا هي حكاية هروبه من مصر إلى دمشق لإحضار أسرته من دمياط، وما كابده من مشقة الانتقال بحراً. وعلى الرغم من سلامة أبنائه وأبناء أخيه فقد حزن على فقد ماله وكتبه حيث يقول سارداً:

«وقد كان في المركب حُلِيٌّ أودعه النساء، وكُسْوَات وجوهر وسيوف وسلاح وذهب وفضة بنحو من ثلاثين ألف دينار. . . وحرمنا ذهاب ما ذهب من المال، إلا ما ذهب لي من الكتب، فإنها كانت أربعة آلاف مجلدة من الكتب الفاخرة. فإن ذهابها حزازة في قلبي ما عشت، فهذه نكبات تزعزع الجبال وتفني الأموال. والله سبحانه يعوِّض برحمته ويختم بلطفه ومغفرته»[39].

ولعل في هذه الحكاية تجسيداً لشخصية أسامة بن منقذ الذي واجه المحن والمصاعب وتَقَبَّلَها بنفس راضية، مؤمناً بأن الله سيعوضه برحمته ويختم له بلطفه.

2 – 1 – 5 – معارك مع الإفرنج ومع المسلمين ص 36 - 102

تحتل حكايات المعارك مع الإفرنج الجزء الأكبر في ذكريات أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار». وتنشط ذاكرته لتسلط الضوء على جزئيات صغيرة في أحداث قديمة، مضى عليها أكثر من سبعين عاماً، كما في حكاية «أول قتال حضره أسامة».

«ومثل ذلك ما جرى لي على أفامِيَة. . . وذلك يوم الجمعة خامس جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة. . . وسرت في نفر قليل، ما يلحق عشرين فارساً. . . خرج علينا من الإفرنج جمع كثير. . . فهان على الموت لهلاك ذلك العالَم معي. فرجعت على فارس في أولهم قد ألقي عنه

درعه... فطعنته في صدره فصار على سرجه ميتاً، ثم استقبلت خيلهم المتتابعة فولوا، وأنا غِرٌّ من القتال ما حضرت قتالاً قبل ذلك اليوم...[40].

وسرد في هذا الجزء الكثير من ذكريات شجاعته، في قتال الإفرنج، مع والده وعمه عز الدين أبي العساكر سلطان، وابنه مرهف، وابن عمه ذخيرة الدولة أبي القنا خِطام، وصاحبه جمعة النميري وغيرهم، وكان فيها مقاتلاً واثقاً من نفسه، قوياً في طعناته، حكيماً في تصرفاته، عند مواجهة الأعداء. يقول أسامة في هجومه على قافلة للإفرنج سارداً:

«ومع هذا فلا يثق إنسان بشجاعته ولا يعجب بإقدامه، فوالله لقد سرت مع عمي... ونحن لقيناهم فقتلنا منهم قدر عشرين رجلاً...»[41].

ثم سرد حكاية إنقاذ ابن عمه ذخيرة الدولة أبي القنا خطام:

«وأمال الإفرنج فإنهم اجتمعوا بعد ما قتلنا منهم من قتلنا... فجاءني ابن عمي... فساعة ما استوى في سرجه حمل على الإفرنج وحده فأفرجوا له حتى توسطهم وطعنوه ورموه، فحملنا عليهم فهزمناهم عنه واستخلصناه وهو سالم...»[42].

ثم سرد حكاية بَيَّنَ فيها ثقته بنفسه وشجاعته في قتال الإفرنج:

«وأغار علينا عسكر إنطاكية... وأنا واقف في طريقهم أنتظر وصولهم إليَّ لعلّي أنال منهم فرصة، وأصحابنا يعبرون عليَّ منهزمين... ففزت الحائط. فضبطتُّ حتى صرتُ أنا والإفرنج مصطفين وبيننا الحائط»[43].

لقد كان أسامة بن منقذ صادقاً وأميناً عندما سرد حكايات شجاعته وبطولاته مع أهله وقومه، كما كان صادقاً وأميناً عندما سرد أخرى عن خصومه

وأعدائه من الإفرنج. فهو ينظر نظرة موضوعية إلى الذات والآخر. يقول عن شجاعة الإفرنج:

«والإفرنج، خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة، ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأي وهم أصحاب القضاء والحكم. . . »[44].

وسرد أسامة حكاية أخرى بَيَّنَ فيها شجاعة فارس إفرنجي:

«وكان بأفامية فارس من كبار فرسانهم يقال له بدر هوا. . . فالتفت فرأى أربعة فوارس منا. . . فحمل عليهم فهزمهم. . . »[45].

وفي حكاية أخرى وصف طعنة لإفرنجي:

«وشاهدت من الطعنات العظيمة طعنة طعنها فارس من الإفرنج، خذلهم الله، فارساً من أجنادنا يقال له سابه بن قنيب كلابي قطع له ثلاثة أضلاع من جانبه الأيسر وثلاثة أضلاع من جانبه الأيمن وضرب شفار الحربة مرفقه ففصله كما يفصل الجزار المفصل. ومات لساعته»[46].

ثم سرد عدة حكايات بَيَّنَ فيها شجاعة فرسان الإفرنج مثل: حكاية «وآخر يحمل على عسكر»[47]، وحكاية «واحد يغزو ثمانية»[48].

كما سرد عدة حكايات بَيَّنَ فيها شجاعة والده، إذ يقول فيها:

«وكان الوالد، رحمه الله، كثير المباشرة للحروب وفي بدنه جراح هائلة، ومات على فراشه. . . »[49].

ثم وصف شجاعة والده وعمه في حكاية أخرى مع الإفرنج:

«وكانا، رحمهما الله، من أشجع قومهما. . . ومرة أخرى شاهدته وقد أغارت علينا خيل محمود بن قراجا. . . قلت:

«يا مولاي» ترى العدو قد حال بيننا وبين البلد. . . قال: «يا ولدي، في طالعي أنني لا أرتاع. . .»[50].

ثم سرد حكايتين عن شجاعة أخيه عز الدولة أبي الحسن علي، وصفه بالأولى بأنه:

«من فرسان المسلمين يقاتل للدين لا للدنيا»[51].

وسرد خبر استشهاده في الثانية:

«فأقمت بعسقلان لمحاربة الإفرنج أربعة أشهر هجمنا فيها مدينة يُبنى، وقتلتنا فيها نحو مائة نفس، وأخذنا منا أساري، فسرت إلى مصر وبقي أخي عز الدولة أبو حسن علي، رحمه الله، بعسقلان. فخرج عسكرها إلى قتال غزة فاستشهد، رحمه الله، وكان من علماء المسلمين وفرسانهم وعُبَّادهم»[52].

2 – 1 – 6 – مكافحة الأسود والضواري ص 103 - 112

لم يرتِّب أسامة بن منقذ حكاياته في «كتاب الاعتبار» ترتيباً تاريخياً ميقاتياً، كما مر، لذا نراه هنا يرجع إلى ذكرياته أيام الطفولة والشباب، مع والده وعمه خاصة، فيسرد لنا شجاعته ومغامراته مع الثعابين والحيوانات، ولا سيّما الأسد، ويعود سبب شجاعته إلى ما ذكره:

«ما رأيتُ الوالد، رحمه الله، نهاني عن قتال ولا ركوب خطر مهما كان يرى فيّ وأرى من إشفاقه وإيثاره لي»[53].

وأوضح قتاله العنيف للأسد، وشجاعته في مواجهته وقتله:

«قاتلت السِّباع في عدة مواقف لا أحصيها. وقتلت عدةً منها ما شركني في قتلها أحد، سوى ما شاركني فيه غيري، حتى خبرت منها وعرفت من قتالها ما لم يعرفه غيري. . .»[54].

وبيَّن في سرد آخر خبرته في معرفة الفرق بين النمر والفهد:

«والفرق بين النمر والفهد أن وجه النمر طويل مثل وجه الكلب وعيناه زرق، والفهد وجهه مدور وعيناه سود. . . »[55].

2 – 1 – 7 – اختبارات حربية ص 131 - 311

وجاءت حكاياته في هذا الجزء عفوية، منتقاة من أيام متفرقة من حياته، وكان أكثرها من ذكريات الطفولة والشباب في شَيْزَر، أيام القتال مع الإفرنج والإسماعيلية، إذْ وصف فيها الطعنات، وقطع الرؤوس، غير أن أهم ما يميز هذا الجزء تخصيص أسامة أكثره لسرد ذكرياته مع بطولة النساء وشجاعتهن، سواء أكانت والدته أمّ جدته أَمْ نساء المسلمين، فضلاً عن ذكرِ شجاعة نساء الإفرنج. ولعل من أكثر الحكايات تشويقاً للقارئ، وأبعدها في ذاكرة أسامة/ حكاية والدة أسامة التي كادت تدفع ابنتها من أعلى الوادي:

«. . . فرقت والدتي، رحمها الله، سيوفي، . . . وجاءت إلى أخت لي. . . وأخذَتْها إلى روشن داري يشرف على الوادي. . . قالت: يا بُنَي أجلستُها على الروشن وجلست براً منها. إذا رأيت الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي فأراها قد ماتت، ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين مأسورة. فشكرتها على ذلك. . . »[56].

ثم سرد حكاية مسلم قتل إِفْرَنْجِيّاً فضربته زَوْج الإفرنجي:

«فطعنِّي الرجل هذه الطعنة الواحدة وضربته قتلته. فمشت إليَّ امرأته وضربتني بالكوز الخشب في وجهي جرحتني هذا الجرح الآخر فوسما وجهي»[57].

2 – 1 – 8 – طبائع الإفرنج وأخلاقهم ص 123 - 141

ويعد هذا الجزء من أمتع الأجزاء لما سرده أسامة بن منقذ عن طبائع الإفرنج وأخلاقهم، ولا سيما في الطب والغيرة على النساء.

ومن أطرف ما سرده ساخراً من عجائب طبهم أن طبيباً إفرنجياً أراد أن يعالج رجلاً فارساً فقال له:

«أيهما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة. قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً... فضربه، وأنا أراه ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته...»[58].

لقد كان منصفاً لخصومه الإفرنج، أميناً في نقل طباعهم. لذا نراه في موضع آخر يسرد لنا حكاية الفارس الإفرنجي/ برناد، الذي:

«رمحه حصان في ساقه فَعَمَّلت عليه رجله وفُتحت في أربعة عشر موضعاً، والجراح كلما ختم موضع فُتح موضع، وأنا أدعو بهلاكه. فجاءه طبيب إفرنجي فأزال عنه تلك المراهم وجعل يغسل بالخل الحاذق. فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان»[59].

ثم سرد حكاية طريفة عن الإفرنج، وأنه لا غيرة لهم على نسائهم:

«وليس عندهم من النخوة والغيرة. يكون الرجل يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث. فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى»[60].

ثم سرد ساخراً من إفرنجي رأى رجلاً في فراشه مع زَوْجه:

«فقال له: «أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي؟» قال: «كنت تعبان (كذا) دخلت أستريح» قال: «فكيف دخلت إلى فراشي؟» قال: «وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه». قال: «والمرأة نائمة معك؟» قال: «الفراش لها. كنت أقدر أمنعها

من فراشها؟» قال: «وحق ديني، إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت»[61].

2 – 1 – 9 – اختبارات وملاحظات ص 142 - 166

سرد اسامة بن منقذ في هذا الجزء اختباراته وملحوظاته الطريفة والغريبة، بعيداً عن الحروب مع الإفرنج والإسماعيلية وغيرهم، وهي أشبه ما تكون بإضاءات على أحداث صغيرة، ظلت عالقة في ذهن أسامة لعقود من الزمن، بَيَّنَ فيها طبائع بعض الشخصيات، التي لم يكن ليعرفها أحد لولا كشفه عنها. مثل حكاية خوف عم أسامة، عز الدين أبي العساكر سلطان من الفأرة، على الرَّغْم من شجاعته المعروفة[62]. ومثل حكاية الجرح الذي أصابه من إهمال الركابي، وهو الشديد البأس في المعارك[63].

ولعل أَفْضَلَ ما في هذا الجزء حكاية «تأملات أسامة بشأن طول العمر» فهي تمثل أبهى صور أدب الاعتراف بعد بلوغه ذروة التسعين، ومقارنة حاله وهو في التسعين مع حاله أيام الشباب:

«ولم أدر أن داء الكِبَرِ عام، يعدي كل من أغفله الحِمام. فلما توقلت ذروة التسعين، وأبلاني مر الأيام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف. ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض. حتى أنكرت نفسي، وتحسرت على أمسي. وقلت في وصف حالي:

لما بلغتُ من الحياة إلى مَدَى ... قد كنتُ أهواهُ تَمَنَّيْتُ الرَّدَا
لم يُبْقِ طولُ العمرِ مِنِّي مُنَّةً ... ألقَى بها صرفَ الزمانِ إذا اعتدا
ضَعُفَتْ قُواي وخانني الثقتان مْن ... بَصَري وسمعي حين شارفْتُ المدا
فإذا نهضتُ حسبتُ أني حاملٌ ... جبلاً وأمشي إن مشيتُ مُقَيَّدَا
وأَدَبُّ في كفّي العصا وعددتُها ... في الحرب تحمل أسمراً ومهنَّدا

وأبيتُ في لِينِ المهادِ مسهَّدا قَلِقاً كأنني افترشتُ الجَلمَدا

والمرءُ يُنْكسُ في الحياةِ وبينما بلغ الكمالَ وتَمَّ عاد كما بَدا[64]

2 – 2 – (الباب الثاني) نكت ونوادر، ص 169 - 187

2 – 2 – 1 – أخبار الصالحين ص 170 - 180

سرد أسامة بن منقذ أخبار بعض الصالحين وكراماتهم، وهم أحياءٌ وأموات. مثل خبر عبدالله محمد البصري، الذي عَلِمَ بأن كتاب صداق المرأة الشاكية هو قرطاس حلاوة عندها[65]. وخبر عبدالله بن ميمون الحموي، الذي أوصى بأن ينادوا من فوق رابية، على عبدالله بن القبيس قبل دفنه، وعندما فعلوا ذلك جاء رجل وصلى عليه وانصرف، قبل أن يعرفه أحد[66]. وسرد أسامة بن منقذ حكاية تبين منها إيمانه بالكرامات، وبذلك يكون قد كشف لنا عن طبيعة عصره، وجانباً من معتقداته وأفكاره باعتراف صريح منه؛ حيث سرد حكاية على لسان عبد علي، الذي أصابه الفالج، ويبست رجلاه. وكان يزحف إلى الوزراء لأن رجله لم تكن تتبعه، وليس فيها حركة، وقد عجز الأطباء عن علاجه، إلا أنه شُفِيَ بعد رؤيا رآها في منامه:

> **«فبقيت على ما أنا عليه إلى ليلة رأيت فيها فيما يرى النائم كأن رجلاً وقف عليَّ وقال: قم. قلت: من أنت؟ قال: أنا علي بن أبي طالب. فقمت ووقفت. فأنبهت امرأتي وقلت ويحك! قد بصرت كذا وكذا! فقالت: ها أنت قائم. فمشيت على رجلي وزال ما كان بي ورجعت كما تراني. . .»**[67].

ولعل تلك الأفكار والمعتقدات التي آمن بها أسامة بن منقذ هي سبب عدم ارتياح صلاح الدين الأيوبي إليه، فضلاً عن ميله إلى التشيُّع كما ذكر فيليب حتي: «ولكن لأسباب نجهلها انقلب عليه ظهيره صلاح الدين، وربما كانت إقامة أسامة في مصر ولدت فيه ميلاً إلى التشيع لحظه صلاح الدين»[68].

2 – 2 – 2 – الشفاء بطرق غريبة ص 181 - 187

سرد أسامة بن منقذ هنا بعض الحكايات الغريبة أيضاً، كما في الجزء السابق، بما يمكن أن نسميه أدب الاعتراف، والكشف عن جوانب شكلت اقتناعات في حياته، وقد آمن بها وسلم، فرجل يشفى من الخرَّاج بعد شرب البيض، وآخر يشفى من الفتق بعد أكل الغربان، وثالث يشفى من أكل خبز وخل، وقد كان في دن الخل أفعيان. ثم سرد أخيراً حكاية مربيته «لؤلؤة» التي شفيت من القولنج بعد أن رأت أمواتها في حلم[69].

2 – 3 – (الباب الثالث) أخبار الصيد، ص 191 – ص 226

2 – 3 – 1 – الصيد في سورية والجزيرة ومصر 192 - 198

لخص أسامة بن منقذ رؤيته للحياة، وكشف عن طبيعة شخصيته، في إحداث نوع من التوازن بين أداء واجبات الله ومتطلبات النفس بقوله في استهلال هذا الباب:

«ولله منّي جانب لا أضيعه وللّهوِ مني والبطالة جانبُ»[70]

وبدا مُجهداً من سرد أحداث الحروب، وتذكر أهوالها، فقرر إحداث نوع من الاستقرار والهدوء النفسي، وإراحة الذاكرة، في سرد حكايات لهوه وصيده أيام الشباب، والكبر، سواء أكانت في شَيْزَر أم دمشق أم مصر أم ديار بكر، مع والده وعمه وأصدقائه، أو مع الملوك والأمراء. وكانوا يقومون بصيد الطيور والكُركيّ والدرَّاج والضِباع والغزلان والأرانب والبقر الوحشي والذئاب والثعالب واليحامير، ويقومون بتقديد اللحوم وتجفيفها/ الوشق، الذي لم يكن يعرفه أسامة بن منقذ من قبل:

> **«وقد شاهدت صيد ملك الأمراء أتابك زنكى... فرأيته يقدم البازدارية بالبزارة ترميها على طيور الماء، وتدق الطبول كجاري العادة فتتصيَّد منها ما تصيد... وبين يدي أتابك بازيار على يده باشق. فطار ذكر درّاج فأرسله عليه فأخذه**

ونزل... ورأيته وهو في صيد الوحش دفعات... وأمر غلاماً خلفه يحمل الوشق... وما كنت رأيت الوشق قبل ذلك...»[71].

وربما كان خروجهم للصيد أكثر من مرة في الأسبوع:

«ورأيت الصيد بمصر كان للمحافظ لدين الله عبدالمجيد أبي الميمون... يخرج لهم في الجمعة يومين... وكنت أركب يوم خروجهم إلى الصيد لأتفرج بنظر صيدهم...»[72].

وكان الصيد متعةً ومرحاً وضحكاً، كما بَيَّنَ أسامة بن منقذ سابقاً، وكما قال عن صيده مع الملك العادل نور الدين:

«فحضرته ونحن بأرض حماة وقد جلوا له أرنباً فضربه بنشَّابه... وحضرته يوماً وقد أرسل كلبه على ثعلب ونحن على قرا حصار بأرض حلب. فركض خلفه وأنا معه. فلحقت الكلبة أخذت ذنب الثعلب فرجع إليها برأسه فعض خيشومها. فصارت الكلبة تعوي ونور الدين، رحمه الله، يضحك...»[73].

2 – 3 – 2 – والد أسامة صياداً ص 199 - 226

يبدو أن أسامة بن منقذ وجد راحة نفسية كبيرة له وهو يسرد ذكريات أيامه الأولى في شَيْزَر مع والده، ولا سيما ذكريات الصيد، فهو معجب بوالده وصيده، على الرَّغْم من صيده مع الأمراء والملوك:

«شاهدت من الصيد مع هؤلاء الأكابر شيئاً كثيراً... وما رأيت مثل صيد والدي رحمه الله...»[74].

ويبدو أيضاً أنَّه أخذ مبدأ التوازن في الحياة، بين طاعة الله، واللهو المباح من والده، حيث قال عنه:

«. . . إن والدي، رحمه الله، كان قد فرغ زمانه لتلاوة القرآن والصيام والصيد في نهاره، وفي الليل ينسخ كتاب الله تعالى. فكان قد نسخ ستاً وأربعين ختمة بخطه، رحمه الله، منها ختمتان بالذهب. . . ويركب إلى الصيد يوماً ويستريح يوماً. وهو صائم الدهر. . . »[75].

إن هذه الشخصية، شخصية الفارس الزاهد، قد أثرت في تكوين شخصية الابن أسامة إلى أبعد الحدود، وكأن من يقرأ الفقرة السابقة يقرؤها عن أسامة لا عن والده.

وكان أسامة بن منقذ يستخدم الباز والزَّرَق في صيده، ويملك منها الكثير:

«. . وكثرت البُزاةُ حتى صارت عندنا مثل الدجاج. . . »[76].

ولم تكن رحلة صيده لَهْواً فقط، ولكنها حلقة قراءة للقرآن الكريم كما بَيَّنَ في إحدى رحلاته مع والده:

«ويخرج معنا بُزاةٌ كثيرة. . . . ونحن أولاده حفاظ القرآن. فنفترق نقرأ حتى يصير إلى مكان الصيد يأمر من يستدعينا فيسألنا كم قرأ كل واحد منا. فإذا أخبرناه يقول: «أنا قرأت مائة آية. . . » ومعه من مماليكه وأصحابه أربعون فارساً أخبر الناس بالصيد. فلا يكاد يطير ولا يثوب أرنب ولا غزال إلا اصطدناه. . . »[77].

كما كان والده، رحمه الله، من عشاق الباز، وكان يشتري الباز فرخاً ثم يربيه:

«وكان أكثر ما يستدعي البزاة ويشتريها من وادي بن الأحمر بالغلاء. . . فقرر ثمن الباز الفرخ خمسة عشر ديناراً. . . »[78].

كما كان يصيد بالكلاب والفهود والفرس. ومن أهم ما صاده والده الطيور والدَّراجُ والحَجَلُ/ القَبجُ والكُركيّ والوَزُّ والْحُبَارى والسُّماني والغزال الآدمي والخنزير، ويسمى صيد الخنازير قتلاً:

«وفي الأزوار خنازير كثيرة فنركض عليها ونقتلها فيكون بقتلها أكثر من فرحة الصيد. . .»[79].

ويتذكر رحلة صيد الغزال بالصقور والكلاب مع والده وهو صغير، فيقول سارداً:

«وكان عنده، رحمه الله، من الكلاب السلوقية كلاب جياد، أرسل يوماً الصقور على الغزلان. . . بالوحل، وأنا معه صغير على بِرْذَوْن لي. . . وقد صرعت الصقورُ والكلابُ الغزالَ فقال لي: «يا أسامة الحق الغزال وانزل أمسك رجليه إلى أن نجيء ففعلت. . .»»[80].

وكان والدهُ ينفق المال الكثير على شراء الفَرَس ليستخدمها في صيد اليحامير:

«وكان، رحمه الله، يطرد اليحامير. . . فصرع منها يوماً خمسة أو ستة على فرس له دهماء تسمى فرس خُرْجي باسم صاحبهما الذي باعها. كان اشتراها الوالد منه بثلاثمائة وعشرين ديناراً. . .»[81].

أما السمك فلم يكن من صيد أسامة ولا من صيد والده، بل كان أسامة يشاهد صيده فيعجب به، ويصف أدوات صيده:

«وكنا نتصيد ونعود ننزل على بوشمير، نهر صغير بالقرب من الحصن. وننفذ نحضر صيادي السمك فنرى منهم العجب. فيهم من معه قصبة في رأسها حربة لها جُبَّة مثل الخشوت. ولها في الجبة ثلاث شعب حديد، طول كل شعبة ذراع، وفي رأس القصبة خيط طويل مشدود إلى يده. . . ويبصر السمكة فيزرقها بتلك القصبة. . . فما يخطئها. . .»[82].

وسرد حكاية صيده، مع والده، حمير الوحش، وهو صغير السن:

«وخرج الوالد، رحمه الله، يوماً إلى صيد الغزلان، وأنا معه صغير... فأخذت خشتاً... وإذا عانة حمير وحش. فقلت للوالد «يا مولاي، ما أبصرت حمير الوحش قبل اليوم... فركضت... فأفردت منها حماراً وصرت أطعنه بذلك الخشت فلا يعمل فيه شيئاً لضعف يدي...»[83].

ثم ختم هذا الجزء مبيناً مدة صيده بقوله:

«حصر ذلك الصيد، وقد شهدته سبعين سنة من عمري، غير ممكن ولا مستطاع...»[84].

وهكذا تبيَّن أن أسامة بن منقذ تحرر من قيود السرد على وَفْق التسلسل الزمني الميقاتي، حسب الأيام والأسابيع والشهور والسنين، فأعطى نفسه الحرية المطلقة، في الانتقال إلى الزمن الماضي، وانتقائه، على حَسَب ما سمحت له الذاكرة، حوادث ومشاهدات، ظلَّت باقية في ذاكرته سنين طويلة، ليقوم بسردها.

ولقد شكل موضوع الكتاب/ سيرة أسامة بن منقذ البنية السردية الكبرى للكتاب، فيما شكَّلَت أبواب الكتاب الثلاثة البنيات السردية الصغرى، وجاءت الحكايات المسرودة وحدات سردية فرعية داخل كل باب/ وحدةسردية صغرى، وبذلك حافظ الكتاب على بنيته السردية قوية متماسكة.

3 – المسرود له

يحاول كاتب السيرة/ السارد أن يقيم علاقة وثيقة مع القارئ لسيرته الذاتية/ المسرود له. وفي «كتاب الاعتبار» استطاع أسامة بن منقذ سارِداً أن يقيم هذه العلاقة القوية بينه وبين القارئ لسيرته الذاتية مسروداً له. واستطاع أن يحقق غاياته ووظائف السرد في السيرة الذاتية نحو المزيد من التواصل مع المسرود له، والاعتراف له، والتعبير عن موافقه تجاه الكثير من صروف الدهر التي مرت به عبر السنين. ولقد اتخذ المسرود له في «كتاب الاعتبار» أشكالاً عدة منها:

3 – 1 – أرى أن كاتب السيرة الذاتية يكون سارداً ومسروداً له في آن

واحد. ولعل أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» كان خير مثالٍ على ذلك. فقد كان سارداً، يقوم بعملية السرد بتمامها، ويسجل اعترافاته، من ناحية، كما كان مسروداً له، من ناحية أخرى؛ يستمع إلى ما بداخله، في اعترافاتٍ صريحةٍ مع الذات. وقد أخرجها من أعماق ذاكرته، ليكون مستمعاً لها، بعد أن كان بطل أحداثها، أو شاهداً عليها. وبذلك يكون قد حقق الوظيفة الاعترافية «التي تتيح للكاتب أن يفضي بمكنونات حياته في سيرته الذاتية»، كما يقول عبدالعزيز شرف[85].

3 – 2 – كما كان أبناء أسامة بن منقذ وأحفاده وتلاميذه وأصحابه وخدمه، وجميع من عاصره، مسروداً لهم. رأى ضرورة الاعتراف لهم، والبوح بما بداخله لهم، لتقريبهم، وكسب ثقتهم، وإلقاء عبءٍ ثقيلٍ عن كاهله أمامهم، ليغفروا زلاته وأخطاءه، وهو في أواخر حياته، وقد تجاوز التسعين من عمره. وبدا ذلك واضحاً في نهاية نسخة «كتاب الاعتبار»، حيث اتضح، في آخرها، أن مُرْهفاً ابنه كان وجد صاحب النسخة، وأنه قرأ:

«هذا الكتاب من أوله إلى آخره في عدة مجالس. . .»[86].

وأمام هذا التواتر في سرد الكتاب، بما حواه من اعترافات وخصوصيات، تتحقق وظيفة التواصل مع الآخر، ليعتبر الأواخر بما فعله الأوائل، وهي الغاية الكبرى التي أراد أسامة بن منقذ تحقيقها في كتابه هذا، الذي يندرج في إطار الأدب السردي بوصفه جنساً أدبياً لما فيه من انعكاس حقيقي للبوح الذاتي.

ولا شك أن «هذه الوظيفة التواصلية تمثل عنصراً تركيبياً مهماً في السيرة الذاتية»[87].

3 – 3 – ويعد قارئ «كتاب الاعتبار» اليوم مسروداً له أيضاً. فنحن اليوم نقف أمام رجل سجل اعترافاته وذكرياته، بحلوها ومرّها، وبأدق تفاصيلها، ونقل لنا، بأمانة، صورة لجوانب مختلفة من حياته، وربما حياة الكثيرين في القرن الهجري السادس/ الميلادي الثاني عشر. وإن كنا نقف اليوم موقف الناقد والفاحص لمواقفه تجاه الإفرنج والحرب والصيد، وقد نؤيده في بعض

المواقف، ونقبل عذره في أخطاء وقع فيها. وقد نختلف معه في بعض المواقف الأخرى، كقتل الخادم ولعن الآخر.

4 – الزمن السردي

4 – 1 – زمن السرد وزمن الحدث/ المشاهدة

يختلف زمن السرد عن زمن الحدث/ المشاهدة في السيرة الذاتية، وفي «كتاب الاعتبار» سرد أسامة بن منقذ، على سبيل المثال، حكاية قتله خادمه، عندما كان دون العاشرة من عمره، وبذلك يكون الفاصل الزمني بين زمن الحدث/ المشاهدة وزمن السرد أكثر من ثمانين سنة. وهو زمن طويل بلا شك، غير أن أهمية الحدث، وبعده النفسي في ذاكرة أسامة، جعلته حياً حاضراً، بجميع تفاصيله الدقيقة، من حيث مكان الحدث وزمنه، وعمره زمن الحدث، وأسماء الشخصيات، وجهة الطعنة، ولون الدم وغيرها من التفاصيل:

> «. . . **فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبياً من خدام الدار فانهزم منه وجاء تعلق بثوبي، فلحقه وهو ماسك بثوبي فلطمه. فضربته بقضيب كان في يدي فدفعني. فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها فوقعت في بزه الأيسر فوقع. . . وإذا تنفس طلع منه الدم مثل فواقع الماء، فاصفر وارتعد. . . وقد مات. . .** »[88].

وينطلق الزمن في السيرة الذاتية من الحاضر/ زمن السرد إلى الماضي/ زمن الحدث/ المشاهدة، وفي «كتاب الاعتبار» انطلق أسامة بن منقذ من الزمن الحاضر/ زمن السرد، وقد تجاوز التسعين من عمره، إلى الزمن الماضي/ زمن الحدث/ المشاهدة، وظل هناك في الزمن الماضي، يبحث عن ذكرياته، بجزئياتها وتفاصيلها، ما أمكن، لينقل لنا صورة، ربما تكون ناقصة، عن أحداث ومشاهدات عاشها، وظلت عالقة في ذاكرته، سنين طويلة. كما أن زمن الحدث/ المشاهدة وزمن السرد غير ثابتين؛ إذ يمكن سرد حدث قد حدث للسارد/ بطل السيرة الذاتية أو كان شاهداً عليه قبل ثلاثين سنة، ثم يسرد بعده

حدثاً، حدث له أو شاهده، وقع قبله بعشر سنين. وهذه هي طبيعة الزمن في السيرة الذاتية، بحيث لا يخضع للتسلسل الزمني التاريخي، المعدود بتسلسل الأيام والشهور والسنين، كما في كتب التاريخ، بل يخضع لقوانين الذاكرة، والاهتمام الشخصي، فخبر قتل أسامة خادمه، وهو دون عَشْر السِّنين، جاء متأخراً، وقد سبقته حكايات كثيرة حدثت لأسامة أو شاهدها، بعد ذلك بعشرات السنين. كما جاء الكثير من أخبار الصيد، مع والده عندما كان صبياً، متأخِّراً، وقد سبقها سرد حكايات كثيرة حدثت لأسامة بعدها، عندما كان شيخاً كبيراً.

وعند عودته في «كتاب الاعتبار» إلى الزمن الماضي/ زمن الحدث/ المشاهدة يرتكز الزمن عند نقطة زمنية، تعد حاجزاً في زمن سرد الحدث/ المشاهدة، في ذلك الحين، ثم تحدث بعدها المفارقات الزمنية من تقديم وتأخير وتوافق، أو استرجاع أو استباق، في أنساق زمنية هابطة وصاعدة ومتقطعة. وتأسيساً على دراسة جيرار جنيت[89] يمكن تقديم نموذج من حكاية «أسامة الصبي يقتل خادمه»[90] لمعرفة المفارقات الزمنية.

لقد وضعنا الرقم (1) للدلالة على زمن الحدث/ المشاهدة/ الماضي والرقم (2) للدلالة على زمن السرد/ الحاضر، ثم رمزنا لفقرات الحكاية أبجدياً، وقد انطلق السرد من نقطة الصفر/ الحاضر في زمن الحدث/ المشاهدة في الماضي، ثم حدث بعدها الاسترجاع/ الماضي والاستباق/ الحاضر كما يلي:

وشاهدت من ضعف نفوس بعض الرجال وخورهم،	منطلق سردي لحكاية
ما لا كنت أظنه بالنساء فمن ذلك	جديدة/ نقطة في الماضي
أ – 1 – أنني كنت يوماً على باب دار والدي رحمه الله	ماضٍ
– وأنا صبي عمري دون العشر سنين	توقف الزمن للتذكر

ب – 2 – فلطم غلام لوالدي اسمه محمد العجمي صبياً من خدام الدار	حاضر
ج – 1 – فانهزم منه.	ماضٍ
د – 2 – وجاء تعلق بثوبي	حاضر
هـ – 1 فلحقه	ماضٍ
و – 2 – وهو ماسك بثوبي فلطمه	حاضر
ز – 1 – فضربته بقضيب كان في يدي	ماضٍ
ح – 2 – فدفعني	حاضر
ط – 1 – فجذبت من وسطي سكيناً ضربته بها	ماضٍ
ي – 2 – فوقعت في بزّه الأيسر	حاضر
ك – 1 – فوقع	ماضٍ

4 – 2 – تقنيات زمن السرد

وتأسيساً على دراسة جيرار جنيت وموريس أبو ناضر[91] يمكن لحظ تقنيات السرد التي اتبعها أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» كما فعل غيره. ولعل أهم تلك التقنيات:

4 – 2 – 1 – الخلاصة

«إن الخلاصة من حيث هي شكل من أشكال السرد القصصي تكمن في تلخيص عدة أيام، أو عدة أسابيع، أو عدة سنوات في مقاطع، أو صفحات قليلة، من غير الخوض في ذكر التفاصيل. . .»[92]. ومنها في «كتاب الاعتبار»، على سبيل المثال، قوله في حكاية: مزوِّر التوقيع تضرب رقبته:

«وقتل في الفتنة جماعة من المصريين والسودان»[93].

وكما في قوله في حكاية: المكيدة ضد عباس:

«فكانوا يقاتلونا النهار كله. . . »[94].

فهو سرد سريع لأحداث سابقة حققت وظيفتها في بيان الحالة النفسية لمن عاش تلك الأحداث آنذاك.

4 – 2 – 2 – الوقف

«وهو يتشكل من وقف الأحداث المتنامية إلى الأمام، أو كما نقول في الألسنية وقف الأعمال بغية التأمل في مشهد أو شيء ما»[95]. ومنها في «كتاب الاعتبار»، على سبيل المثال، قوله في حكاية: «الأرمن يرسلون بزاة»:

«وكنا نخرج إلى صيد طير الماء والدرّاج ونرجع بعد عتمة نسمع صوت طيور في خلجان كبار بالقرب من البلد، فيقول الوالد: «هات اليحشور. . . »»[96].

ولا شك أن الوقف للتأمل حقق وظيفته في إطلاق الذاكرة للتأمل والهدوء والانسجام.

4 – 2 – 3 – الحذف

«. . . والحذف من حيث هو شكل من أشكال السرد القصصي، يتكون من إشارات محدودة أو غير محدودة للفترات الزمنية التي تستغرقها الأحداث في تناميها باتجاه المستقبل، أو في تراجعها نحو الماضي، والإشارات الزمنية منها الظاهر مثل: «وقضت عشر سنوات. . . » ومنها الضمني، أو الافتراضي حيث ينتقل بنا الراوي من فترة زمنية إلى فترة أخرى من دون تحديد الوقت الذي استغرقته هذه الفترة»[97].

4 – 2 – 3 – 1 – حذف ظاهر

مثل قوله في «كتاب الاعتبار» في حكاية: وأخرى تقطع الزرد:

«ثم إن الإفرنج غاروا علينا بعد أيام»[98].

4 – 2 – 3 – 2 – حذف ضمني

مثل قوله في «كتاب الاعتبار» في حكاية: رضوان يقتله الحرس الفاطمي: «واجتمع إليه الأمراء وحملوا إليه الطعام والنفقة، وقد جمع الحافظ قوماً من السودان في القصور شربوا وسكروا. . .»[99].

ويؤدي الحذف وظيفته في الكشف عن المعاناة النفسية للسارد تجاه حركة الزمن الثقيلة.

4 – 2 – 4 – المشهد

وعلى عكس الخلاصة فإن الأحداث في المشهد «تتوالى بكل تفاصيلها وأبعادها»[100]. وفي السيرة الذاتية يعتمد السارد على وصف أدق التفاصيل والجزئيات كلما أسعفته الذاكرة وبحسب نشاطها. وفي «كتاب الاعتبار» اعتمد أسامة بن منقذ بشكل أساس على المشهد في الانتقال إلى الزمن الماضي، والانتقال استرجاعاً حيناً واستباقاً حيناً آخر، في محاولة لكشف تفاصيل الحدث وجزئياته، بما فيه من شخصيات وحركات وألوان وأصوات وهواجس نفسية وغيرها. وتعد حكايات «كتاب الاعتبار» مجموعة مشاهد، منها الطويل ومنها القصير. ولعل أفضل مثال قدمه أسامة بن منقذ للمشهد ما جاء تحت البند الثاني: والد أسامة صياداً، في الباب الثالث[101]، حين سرد أحداثاً عاشها وشاهدها، مع والده، في رحلات الصيد المختلفة، بأدق تفاصيلها وجزئياتها، على الرَّغم من أن الفاصل الزمني بين زمن السرد وزمن الحدث/ المشاهدة قد جاوز الثمانين عاماً. وبذلك حقق المشهد وظيفته فهو أساس تقنيات السرد، الذي تقوم عليه السيرة الذاتية، في الغوص في أعماق الذاكرة لسرد أدق تفاصيل المسرود.

5 – أساليب السرد

يعتمد السارد في السيرة الذاتية على عدة أساليب، ليحقق أهدافه وغاياته من السرد. وفي «كتاب الاعتبار» اعتمد أسامة بن منقذ على عدة أساليب سردية أبرزها:

5 – 1 – الأسلوب السير ذاتي

وهو، فيما أرى، أقرب إلى أسلوب السرد الروائي، في التركيز على الحوار داخل السرد، والاعتماد على التشخيص الدقيق للجوانب النفسية والبدنية للشخصية، فضلاً عن الاعتماد على التصوير الدقيق لأدق الجزئيات في المشهد، زماناً ومكاناً. ومن ذلك قول أسامة بن منقذ:

«...أن رجلاً في الحصن استسقى فشق بطنه فبرئ... فأحضر ذلك الرجل عندي. فاستخبرته عن حاله... فقال: أنا رجل صعلوك وحيد... فأخذت موسي وضربت به فوق سُرّتي في عرض جوفي، شققته، فخرج منه قدر طباختين ماء، وما زال الماء ينز منه حتى ضمر جوفي، فخيطته وداويت الجرح فبرأ...»[102].

5 – 2 – الأسلوب التقريري الوصفي

نقل أسامة بن منقذ الأحداث كما شاهدها، دون أن يزيد عليها شيئاً من ذاته، ومنه قوله يصف سباقاً بين عجوزين فانيتين من الإفرنج:

«...خرج الفرسان يلعبون بالرماح. وقد خرج معهم عجوزان فانيتان... وسابقوا بين العجوزين ومع كل واحدة منهن سرية من الخيالة... والعجائز يقمن ويقعن على كل خطوة، وهم يضحكون، حتى سبقت واحدة منهن...»[103].

5 – 3 – الأسلوب التفسيري التبريري

لجأ أسامة بن منقذ إلى تقديم تفسير منطقي تبريري للحدث الذي شاهده قبل سنوات، ثم قام بسرده بعد ذلك. ومنه التفسير التبريري الذي قدمه لما أقدمت عليه أُمُّهُ عندما كادت تدفع ابنتها من أعلى الوادي لتموت حيث قال:

«...وجاءت إلى أخت لي كبيرة السن... أخذتها إلى

روشن في داري يشرف على الوادي. . . قالت: يا بني. . .
إذا رأيتُ الباطنية قد وصلوا إلينا دفعتها رميتها إلى الوادي
فأراها قد ماتت ولا أراها مع الفلاحين والحلاجين
مأسورة. . .»[104].

6 – أدوات السرد

وفي السيرة الذاتية يعتمد السارد على أدوات سردية فنية في الكتابة السردية، أبرزها السرد، والحوار داخل السرد، ووصف الجزئيات، وتقديم شهادة على ما حدث في زمن المشاهدة.

واعتمد أسامة بن منقذ على تلك الأدوات في سرده لحكاياته في «كتاب الاعتبار».

6 – 1 – السرد بالماضي

لقد كان انتقاله ذهنياً إلى الزمن الماضي/ زمن الحدث/ المشاهدة يستوجب عليه الاعتماد على السرد، لنقل صورة ما حدث آنذاك، بصيغة الماضي. ولقد تم ذلك من أول «كتاب الاعتبار» حتى آخره، حيث بدأت الحكايات بالفعل الماضي، مثل: شاهدت، وخرجت، وحدثني، ورأيت، وكان، وغيرها.

6 – 2 – الحوار بالحاضر

وعند الانتقال إلى زمن السرد/ الزمن الحاضر، لجأ أسامة بن منقذ، أحياناً، إلى استخدام الحوار بالزمن الحاضر، آنذاك، بين الشخصيات، فكأنه يقوم باستقطاع جزء من الزمن الماضي، ينقل لنا ما دار فيه من حوار بين شخصيتين حاضرتين، في ذلك الزمن، مثل الحوار الذي دار بين أسامة بن منقذ وجدته:

«. . .وإذا جدتي لأبي، رحمها الله، جاءتني في الليل وبين
يديها شمعة، . . . فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي بغيظ

وغضب «يا بني إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك. . .» قلت: يا ستي، إنما أخاطر بنفسي في هذا ومثله لأتقرب إلى قلب عمي. قالت: لا، والله، ما يقربك هذا منه وإنه يزيدك منه بُعداً ويزيده منك وحشة ونفوراً. . .»[105].

6 – 3 – وصف الجزئيات

لجأ أسامة بن منقذ إلى سرد جزئيات دقيقة، ليصف مشهداً شاهده بالماضي، وليؤكد من ذلك الوصف حقيقة ما حدث، أو حجمه، أو هوله، وهو كثير، منه وصفه لضربة سيف شقت رأس إسماعيلي، وكأنه ينقل ذلك المشهد بجزئياته تشفياً:

«. . .فهجم عليه الباطني بالسكين. فضربه همام بالسيف فوق عينيه فقطع قحف رأسه ووقع مخه على الأرض فانبسط عليها وتطاير. فوضع همام السيف من يده وتقيأ ما في بطنه لما لحقه من نظر ذلك المخ من الغثيان. . .»[106].

6 – 4 – الشهادة على الحدث

ولما كانت السيرة الذاتية سرداً لمشاهدات السارد، التي شاهدها أو عاشها بالماضي، اعتمد أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار»، من أوله إلى آخره، على استخدام عبارات مثل: «ورأيت يوماً»، «وشهدت يوماً»، «نزل علينا صاحب أنطاكية»، «ومثل ذلك ما جرى لي»، «ومن عجيب ما جرى لي»، «فلمنا خرجنا من. . .». وكلها صيغ تؤكد أنه كان شاهداً على ما حدث أو مشاركاً فيه.

7 – لغة السرد

تختلف لغة السرد في السيرة الذاتية عنها في السرديات الأخرى. فإذا كانت لغة السرد في المقامة، مثلاً، تعتمد اللغة المموسقة والسجع والتقطيع الصوتي، فإن لغة السرد في السيرة الذاتية تتحرر من ذلك كله. وفي «كتاب

الاعتبار» تحرر أسامة بن منقذ من قيود التصنع اللفظي، وتخلص من قيود السجع والمحسنات البديعية، مع محافظته على قواعد اللغة العربية ومفرداتها، بشكل مبسط، بعيداً عن التعقيد، وهي لغة أَيْسَرُ كثيراً من لغته التي كتب بها قصائده، أو كتابه «المنازل والديار»، على سبيل المثال لا الحصر. ونلحظ أن أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار» يبسط اللغة السردية إلى حد الإخلال بقواعد اللغة العربية، إذا كان ينقل كلاماً عن إفرنجي، ويكون بذلك قد حقق غايته السردية، في نقل لغة السرد أو الحوار، كما كانت آنذاك، على لسان الإفرنجي، دون تعديل.

ومثال ذلك ما أورده أسامة بن منقذ على لسان رجل إفرنجي في إنطاكية في حكاية «عجائب طبهم» حتى كادت العبارة تفقد معناها:

> **«. . . قال: «تحلف لي بدينك إن وصفت لك دواءً يبرئه لا تأخذ من أحد تداويه به أجرة حتى أصف لك دواءً يبرئه؟» فحلف. . . »**[107].

ولجأ أسامة بن منقذ أيضاً إلى إثبات بعض الألفاظ الإفرنجية أو الفارسية أو التركية، وتركها في سياقها على لسان صاحبها، ثم قدم ترجمة لها، مثل العبارة التي جاءت على لسان سالم في حكاية «ليس للإفرنج غيرة جنسية»:

> **«فقال: «سالم، بحق دينك اعمل للداما» (والداما بلسانهم الست) يعني امرأته. وقال لغلام له: «قل للداما تجيء» . . . »**[108].

واستخدم أسامة بن منقذ، حيناً آخر، ألفاظاً عامية، غير أنه أوردها في سياقها، على لسان قائلها، دون تعديل، مثل العبارة التي جاءت على لسان جدته، في حكاية «جدة أسامة تنصحه»:

> **«فلقيتها وقبلت يدها فقالت لي: بغيظ وغضب «يا بني إيش يحملك على هذه المصائب التي تخاطر فيها بنفسك وحصانك وتكسر سلاحك. . . »»**[109].

لا شك أن استخدام أسامة بن منقذ لهذه اللغة المُيَسَّرَة حيناً، والخارجة عن قواعد اللغة العربية وألفاظها، حيناً آخر، جعل من لغة السرد في «كتاب الاعتبار» لغة مقبولة، نجح أسامة بن منقذ في استخدامها، لينقل لنا ذكرياته بلغتها اليومية المحكية آنذاك، بلا تكلف أو تعديل. فيما حافظ وهو يسرد الأحداث التي عاشها أو كان شاهداً عليها بلغة عربية فصحى مُيَسَّرَة، لغة السيرة الذاتية، وهي غير اللغة المستخدمة في كتبه الأخرى. أو كما يقول شوقي ضيف:

> **«. . .إنها كتبت بأسلوب قصصي ممتع لا تصنع فيه ولا تكلف، فلا سجع يداخله، ولا محسن من محسنات البديع، بل يترك أسامة نفسه على سجيتها يصف ما شاهد وصفاً نابضاً بالحياة في لغة سهلة. . .»**[110].

الخاتمة

وصلت هذه الدراسة إلى نهايتها في تناول الفرضية وإثباتها، باعتبار السيرة الذاتية جنساً أدبياً سردياً، من خلال دراسة «كتاب الاعتبار»، لأسامة بن منقذ، نموذجاً. فقد تم التعريف بالسيرة الذاتية لغة واصطلاحاً، تمهيداً لانطلاق الدراسة. ثم الكشف، بالدراسة أيضاً، عن فارس هذه الحكايات وبطلها/ أسامة بن منقذ، سارد الحكايات في «كتاب الاعتبار»، وبيان مراحل حياته، في شَيْزَر ودمشق والقاهرة ثم بعد العودة إلى دمشق آخر حياته، باعتباره محور العملية السردية، فالمسرود/ الحكايات يتعلق به، فهو بطلها، والسارد هو نفسه، في عملية تذكر واستحضار الماضي، بعد مرور عقود طويلة على تلك الحوادث، التي عاشها أو كان شاهداً عليها. ثم بيان كيف أن «كتاب الاعتبار»، كان مرآة الذات لأسامة بن منقذ، كشف فيه ذاته للمسرود له من أهله وأصدقائه، وكل من يقرأ مذكراته/ اعترافاته، وكيف كانت علاقاته مع الآخر، سواء كان الآخر القريب مثل: الوالد، والوالدة، والجدة، والأصدقاء، والأساتذة، والخدم، وصلاح الدين الأيوبي، أو غيرهم، أو كان الآخر البعيد كالإفرنج والإسماعيلية،

كما لم يفته أن يبين موقفه من الآخر، إن كان حيواناً أو طيراً أو غيره. وبدا أسامة بن منقذ منسجماً مع ذاته، في اعترافاته الصادقة عن طبيعة تلك العلاقات، وعدم التردد في البوح بها، مما جعل المسرود له صديقاً له، يصدِّق اعترافاته ويغفر زلاته.

ثم ركَّزت الدراسة على الكشف عن المكونات السردية في «كتاب الاعتبار». وكان السارد/ أسامة بن منقذ المكون الأول؛ حيث نهض بالعملية السردية، وكان بمثابة العمود الفقري لها، سواء أكان سارداً متماهياً، أم سارداً مفارقاً مسروده، أم سارداً ضمنياً. ثم جاء المسرود/ المحكي مكوناً ثانياً، وهو مجموع الحكايات في «كتاب الاعتبار» موزعة على أبوابه الثلاثة: حروبه وأسفاره، النكت والنوادر، أخبار الصيد، ثم الخاتمة. ثم جاء المسرود له مكوناً ثالثاً، حيث اعترف أسامة بن منقذ له، سواء أكان المسرود له ذاته، في محاولة تطهير للذات، أم أبناءه وأحفاده وتلاميذه وأحبابه وخدامه، في عملية اعتراف طلباً للعفو عن الزلات، أو القارئ المثقف، بعد سنين، ليعتبر، وليأنس بذلك السرد الجميل. ثم جاء الزمن السردي مكوناً رابعاً. وإذا كان السارد/ المكون الأول محور العملية والعمود الفقري لها فإن الزمن السردي، المكون الرابع لا يقل أهمية عنه، وبغيره لا يمكن قيام السرد في السيرة الذاتية. فالزمن لعبة السارد، وأداته الفنية، بمختلف مفرداتها، لانطلاق السرد واستمراره، سواء أكان في معايشة الحدث المسرود أم في الشهادة عليه. ثم قدمت الدراسة نموذجاً عن المفارقات الزمنية، في حكايات «كتاب الاعتبار»، تأسيساً على دراسة جيرار جنيت وموريس أبو ناضر.

كما تناولت الدراسة تقنيات زمن السرد: الخلاصة، والوقف، والحذف، والمشهد، وتطبيقها على نماذج من حكايات «كتاب الاعتبار». وأساليب السرد في المكون الخامس: الأسلوب السير ذاتي، الأسلوب التقريري الوصفي، الأسلوب التفسيري التبريري، مع تقديم نماذج مؤكدة وشارحة لها. وبينت أدوات السرد، في المكون السادس، التي استخدمها أسامة بن منقذ في «كتاب الاعتبار»: السرد بالماضي، الحوار بالحاضر، وصف الجزئيات، الشهادة على

الحدث. وأخيراً وضَّحت الدراسة لغة السرد، في المكون السابع؛ حيث اللغة العربية السهلة، بلا تصنع أو تكلف، مع التحرر من سجع المقامات.

وتبين للدراسة، أخيراً، من خلال «كتاب الاعتبار» لأسامة بن منقذ صحة الفرضية، التي انطلق منها البحث، في اعتبار السيرة الذاتية جنساً أدبياً سردياً، كسائر الأجناس الأدبية الأخرى، له مكوناته السردية الخاصة به، وله أهدافه وغاياته.

الهوامش والمراجع

(1) انظر مادة «سير» عند: محمد بن مكرم بن منظور: **لسان العرب**، جـ4، بيروت: دار صادر، دار بيروت، دون تاريخ، ص389 وما بعدها، ومحمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1986م، ص528، والسيد محمد مرتضى الحسني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، جـ12، تحقيق مصطفى حجازي، راجعه عبدالستار أحمد فرّاج، الكويت: وزارة الإعلام، 1973م، ص117.

(2) انظر مادة «سير» عند: محمد علي الفاروقي التهانوي، **كشاف اصطلاحات الفنون**، جـ3، حققه الدكتور لطفي عبدالبديع، ترجم النصوص الفارسية الدكتور عبدالنعيم محمد حسنين، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م، ص170.

(3) انظر: عبدالله إبراهيم، **السردية العربية، بحث في البنية السردية للموروث الحكائي العربي**، الطبعة الأولى، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1992م، ص125.

(4) انظر: سعيد يقطين، **الكلام والخبر، مقدمة للسرد العربي**، الطبعة الأولى، بيروت: المركز الثقافي العربي، 1997م، ص193.

(5) الكلام والخبر، ص195.

(6) انظر: عزيز العظمة؛ **الكتابة التاريخية والمعرفة التاريخية، مقدمة في أصول صناعة التاريخ العربي**. الطبعة الأولى، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، 1983م، ص16.

(7) إحسان عباس، **فن السيرة**، الطبعة الأولى، بيروت: دار صادر، عمّان: دار شروق، الطبعة الأولى، 1996م، ص11.

(8) لمزيد من التفاصيل عن تاريخ السير عند المسلمين انظر: **فن السيرة**، ص9 وما بعدها.

(9) انظر: شوقي ضيف، **الترجمة الشخصية**. القاهرة: دار المعارف، 1956م، ص12 وما بعدها، وانظر: عبدالعزيز شرف، **أدب السيرة الذاتية**، الطبعة الأولى، لونجمان: الشركة المصرية العالمية للنشر، 1992م، ص47 - 59.

(10) انظر: تهاني عبدالفتاح شاكر، **السيرة في الأدب العربي، فدوى طوقان وجبرا إبراهيم جبرا وإحسان عباس، نموذجاً**، الطبعة الأولى، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2002م، ص65.

(11) انظر: أدب السيرة الذاتية، ص47.

(12) انظر: أدب السيرة الذاتية، ص21.

(13) انظر: أسامة بن منقذ، **كتاب الاعتبار**، حرره فيليب حتي، د. ف.، الولايات المتحدة: طبعة جامعة برنستون، 1930م، ص أ-ب.

(14) كتاب الاعتبار، ب. وللمزيد من التفاصيل عن حياته انظر: خير الدين الزركلي، **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**، جـ1، الطبعة السابعة، بيروت: دار العلم للملايين، 1986م، ص291، وانظر: أحمد بن محمد بن خلكان، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، جـ1، بيروت: دار صادر، 1970م، ص195، وانظر: ياقوت بن عبدالله الحموي، **معجم الأدباء**، جـ5، بيروت: دار إحياء التراث العربي، دون تاريخ، ص186.

(15) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «ملاك يغيث أسامة»، ص93.

(16) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «فطنة دليل»: ص13، حكاية: «موقعة مع الإفرنج في عسقلان»، ص15، حكاية «أسامة يفتدي الأسرى»: ص81.

(17) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسامة يطعن رفيقه خطأً»، ص62، وانظر: حكاية «أسامة الصبي يقتل خادمه»، ص145.

(18) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «قطعة السرج»، ص28.

(19) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «رضوان يقتله الحرس الفاطمي»، ص32.

(20) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسرة أسامة بين الإفرنج»، ص34.

(21) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «شرف الفارس: جمعة»، ص36.

(22) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أول قتال حضره أسامة»، ص40.

(23) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسامة الصبي يقتل خادمه»، ص145.

(24) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «وثالثة تنفذ في صدر الإفرنجي»، ص49.

(25) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «وآخر يحمل على عسكر»، ص68.

(26) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «عم أسامة يفك أسر مسلحة»، ص71.

(27) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «فطنة فتاة تركية»، ص71.

(28) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «وفاء بدوي»، ص80.

(29) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «تعقّل صاحب ديار بكر»، ص78.

(30) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «النبي يقلع قيد سجين»، ص94.

(31) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسامة الصبي يقتل خادمه»، ص145.

(32) انظر: كتاب الاعتبار، الباب الثالث، ص191، وانظر قبل ذلك: حكاية «دار والد أسامة مقاتلاً» ص51، حكاية: «والد أسامة ناسخاً»، ص53، حكاية: «شجاعة عم أسامة ووالده» ص55.

(33) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «والده أسامة في القتال» ص124، حكاية: «جدة أسامة تنصحه» ص125.

(34) انظر: كتاب الاعتبار، ص 2.

(35) انظر: كتاب الاعتبار، ص 15.

(36) انظر: كتاب الاعتبار، ص17.

(37) انظر: كتاب الاعتبار، ص26.

(38) انظر: كتاب الاعتبار، ص21.

(39) انظر: كتاب الاعتبار، ص35.

(40) انظر: كتاب الاعتبار، ص 40 - 41.

(41) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسامة وجمعة يهزمان ثمانية فرسان»، ص57.

(42) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «استخلاص ابن عم أسامة من أيدي الإفرنج»، ص59.

(43) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «الهزيمة أمام إفرنج إنطاكية»، ص61.

(44) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «منزلة الفارس عند الإفرنج»، ص64.

(45) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «فارس إفرنجي يهزم أربعة مسلمين»، ص67.

(46) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «طعنة تقطع عدة أضلاع»، ص48.

(47) انظر: كتاب الاعتبار، ص68.

(48) انظر: كتاب الاعتبار، ص70.

(49) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «والد أسامة مقاتلاً»، ص51.

(50) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «شجاعة عم أسامة ووالده»، ص55 - 56.

(51) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «موقعة أخرى في بيت جبريل»، ص16.

(52) مهاجمة يبنى»، ص17 - 18.

(53) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «تربية أسامة البيتية»، ص103.

(54) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «طبائع الأسرى على ما درسها أسامة»، ص109.

(55) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «الفرق بين النمر والفهد»، ص111.

(56) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «والدة أسامة في القتال»، ص124.

(57) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «إفرنجية تجرح مسلماً»، ص128 - 129.

(58) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «عجائب طبهم»، ص132 - 133.

(59) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «عجائب طبهم»، ص133 - 134.

(60) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «ليس للإفرنج غيرة جنسية»، ص135.

(61) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «ليس للإفرنج غيرة جنسية»، ص136.

(62) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «عم اسامة يخاف من الفأرة»، ص142.

(63) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «أسامة يجرح بإهمال الركابي»، ص147.

(64) انظر: كتاب الاعتبار، تأملات أسامة بشأن طول العمر، ص161.

(65) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «بصيرة البصري»، ص170.

(66) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «سمع ابن عبيس»، ص170 - 172.

(67) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «علي يشفي مفلوجاً»، ص177 - 178.

(68) انظر: كتاب الاعتبار، مقدمة المحرر، لـ «كتاب الاعتبار»، الشفاء بطرق غريبة، ص- 187 181.

(69) انظر: كتاب الاعتبار، الشفاء بطرق غريبة، ص181 - 187.

(70) انظر: كتاب الاعتبار، ص191.

(71) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «الصيد مع زنكي»، ص192 - 193.

(72) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «الصيد في مصر»، ص194.

(73) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «مع نور الدين»، ص197.

(74) انظر: كتاب الاعتبار، ص199.

(75) انظر: كتاب الاعتبار، ص199.

(76) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «مصايد البزاة»، ص201.

(77) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «مصايد البزاة»، ص201.

(78) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «مصايد البزاة»، ص200.

(79) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «مصايد البزاة»، ص202.

(80) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «كلاب صيد»، ص213.

(81) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «الفرق بين الخيول العربية والبراذين»، ص214.

(82) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «صيد السمك»، ص218.

(83) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «صيد حمير الوحش»، ص220.

(84) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «الخاتمة»، ص226.

(85) انظر: أدب السيرة الذاتية، ص62.

(86) انظر: كتاب الاعتبار، آخر الكتاب، ص227.

(87) انظر: أدب السيرة الذاتية، ص62.

(88) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «أسامة الصبي يقتل خادمه»، ص145.

(89) انظر: جيرار جنيت، **خطاب الحكاية، بحث في المنهج**. ترجمة محمد معتصم، عبدالجليل الأزدي، عمر حلى، الطبعة الثانية، المجلس الأعلى للثقافة، 1997م، ص45 وما بعدها.

(90) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «أسامة الصبي يقتل خادمه»، ص145.

(91) انظر: خطاب الحكاية، ص109، وانظر: د. موريس أبو ناضر، **الألسنية والنقد الأدبي، في النظرية والممارسة**. بيروت: دار النهار للنشر، 1979م.

(92) انظر: الألسنية والنقد الأدبي، ص98.

(93) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية «مزور التوقيع تضرب رقبته»، ص10.

(94) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «المكيدة ضد عباس»، ص26.

(95) انظر: الألسنية والنقد الأدبي، ص99.

(96) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «الأرمن يرسلون بزاة»، ص205.

(97) انظر: الألسنية والنقد الأدبي، ص101.

(98) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «وأخرى تقطع الزرد»، ص48.

(99) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «رضوان يقتله الحرس الفاطمي»، ص32.

(100) انظر: الألسنية والنقد الأدبي، ص103.

(101) انظر: كتاب الاعتبار، ص199 وما بعدها.

(102) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «مستق يشق بطنه فيشفى»، ص147.

(103) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «سباق إفرنجي»، ص138.

(104) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «والدة أسامة في القتال»، ص124 - 125.

(105) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «جدة أسامة تنصحه»، ص126.

(106) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «ضربة سيف تشق رأس إسماعيلي»، ص116.

(107) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «عجائب طبهم»، ص134.

(108) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «وليس للإفرنج غيرة جنسية»، ص136.

(109) انظر: كتاب الاعتبار، حكاية: «جدة أسامة تنصحه»، ص126.

(110) انظر: شوقي ضيف، **عصر الدول والإمارات، مصر - الشام**، القاهرة: دار المعارف، ص826.

* * *